

## الفصل الثالث

### حافظ إبراهيم شاعر مصر الاجتماعي

يتميز شاعر النيل حافظ إبراهيم عن غيره من شعراء عصره بأنه عرف كيف يساير عواطف أبناء وطنه، فضرب على الوتر الحساس، وبلغ من نفس الشعب المصري كل مظاهر الحب والتقدير والإجلال. لقد نشأ حافظ يتيما فقيرا كما نشأ كثير من الأفياذ والعباقرة، وأحاطت بحياته كل الظروف الصعبة، وسائر أخلاق المصريين وعاداتهم وآدابهم فأضحكهم وأبكاهم خلال نقده لحياتهم الاجتماعية والسياسية بأسلوبه اللاذع من خلال شعره الاجتماعي فكان جريئا فى مواجهة مواطنيه صريحا فى الجهر بذلك فصور روح الشعب الموجه الحزين ومشاكله الاجتماعية فى أسى ودهشة. وإلى جانب ذلك فقد كان شاعرا مدافعا عن وطنه، داعيا إلى إصلاحه ورفع شأنه بطريقة أجاد فيها وصف أحوال بلاده إجابة الرسام الماهر ولا غرو فقد تتلمذ على يد "الشيخ محمد عبده" وتأثر بأفكار "قاسم أمين" و"سعد زغلول" و"البارودى" وغيرهم، فكانت لكتاباته إلى جانب أشعاره مجموعات من الكلمات فيها التعريض اللازم والسخرية البالغة التى يرسلها كما يرسل كاتب قصائد المدح إلى ممدوحه وهى فى الوقت نفسه نم وانتقاص وقد وصف ذلك فى أشعاره كما وصفه فى كتابه "ليالى سطيح" الذى كتبه بعد وفاة صديقه الشيخ محمد عبده ووصف فيه ما يجول بخاطره من هموم وأشجان وتحديث عما يدور فى الحياة المصرية متعرضا لأخلاق الناس وغفلتهم عن مصالحهم وإهمالهم لحقوق وطنهم، وعن ضرورة

استثارة الهمم فى نفوسهم، واستفزاز هذه النفوس لتهديبهم وإصلاحهم. والجدير بالذكر أن حافظ ابراهيم لم يكن شاعر مصر وحدها بل كان شاعر العربية قاطبة على الرغم من لقب "شاعر النيل" الذى أطلقه عليه بعض الأدباء والصحفيين.

لقد استغرق شعر حافظ الاجتماعى معظم ما كتبه فى ديوانه فقد أمضى حياته ينظم فيه بعد اتصاله بقيادة الفكر كالإمام محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم وكان حافظ يردد دائما أن هؤلاء المفكرين قالوا له إذا نظمت فانظم مثل هذا الشعر الاجتماعى. ولذلك كان متفردا بهذه الطريقة. وكان يقول دائما ان الشاعر الذى لا ينظم فى الاجتماعيات ليس عندى بشاعر.

لذلك كان يجلس مع هؤلاء المفكرين وغيرهم ويقتبس منهم الأفكار فيبنى عليها ويدخلها فى شعره.

وبالرغم من المشاكل الاجتماعية التى عرضها حافظ فى شعره مرتبطة بزمنه إلا أنها تكاد تكون مشاكل دائمة ما زلنا نعانى منها بشكل أو بآخر، فهى متصلة بنفوسنا وجدناها أمانا ووجدنا الشعر الذى يتحدث عنها وكأنه وضع لزماننا.

فإذا تعرضنا للقوائد الاجتماعية عند حافظ، نجدها تتسع لتشمل كل عيوب المجتمع التى كان يسعد المحتلين انتشارها فى جسد المجتمع المصرى، حتى يبقى دائما مجتمعا متخاذلا ومتواكلا ومحتاجا للغير. فإذا وقفنا عند قصيدته على لسان اللغة العربية التى نشرها فى سنة ١٩٠٣ نجد ان الذى دفعه إليها ما رآه من عمل المستعمرين على إماته اللغة العربية

وبعث اللغة الانجليزية حتى يفصلوا مصر عن غيرها من البلاد العربية. وقد ثار حافظ منددا بهذه السياسة ممتدحا اللغة العربية الفصحى لغة القرآن. وأخذ يحمس المصريين ويدفعهم إلى الوقوف فى وجه الداعين إلى هذه الغاية ويحذرهم من آثار الفرنجة الجارفة التى أصابت البلاد.

لقد فهم حافظ تماما أن هجر اللغة العربية لا يقصد منه إلا كسر شوكة القومية، وإحلال الإنجليزية محل العربية حتى لا يصبح لنا تراث ثقافى نعتز به، وتأوى إليه نفوسنا. لذلك كتب هذه القصيدة التى يبرز فيها على لسان اللغة العربية سخريتها واستهجانها لما يقوم به بعض أبنائها من هجرها والالتجاء إلى اللغات الأجنبية الوافدة فيقول:

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى	وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى	عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى	رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية	وما ضقت عن أى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتتسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن	فهل سالوا الغواص عن صدفاتى
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى	ومنكم وإن عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فإننى	أخاف عليكم ان تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة	وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا	فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب	ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوما عملتم	بما تحته من عشرة وشتاتى

يعز عليها أن تلين قناتى  
 لهن بقلب دائم الحسرات  
 حياء بتلك الأعظم النخرات  
 من القبر يدنينى بغير أناة  
 فأعلم أن الصائحين نعاتى  
 إلى لغة لم تتصل برواة  
 لعاب الأفاعى فى مسيل فرات  
 مشكلة الألوان ومختلفات  
 بسطت رجائى بعد بسط شكاتى  
 وتبتت فى تلك الرموس رفاتى  
 ممات لعمرى لم يقس بممات

سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما  
 حفظن ودادى فى البلى وحفظته  
 وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق  
 أرى كل يوم بالجراند مزلقا  
 واسمع للكتاب فى مصر ضجة  
 أيهجرنى قومى - عفا الله عنهم  
 سرت لوثة الأفرنج فيها سرى  
 فجاعت كتوب ضم سبعين رقعة  
 إلى معشر الكتاب والجمع حافل  
 فإما حياة تبعث الميت فى البلى  
 وإما ممات لا قيامة بعده

واستمر حافظ يدافع عن اللغة العربية ويطالب المصريين التمسك بها  
 لدرجة ان أمير الشعراء احمد شوقى قال عنه:  
 يا حافظ الفصحى وحارس مجدها  
 وأمام من نجلت من البلغاء  
 مازلت تهتف بالقديم وفضله  
 حتى حميت أمانة القدماء  
 خلفت فى الدنيا بياننا خالدا  
 وتركت أجيالا من الأبناء  
 وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل  
 للدهر إنصاف وحسن جزاء

ويستمر حافظ فى الدفاع عن أهل وطنه وتراثهم ومقدساتهم فيتوجه  
 بقصيدة إلى سعد زغلول ناظر المعارف آنذاك، وينعى على الحكومة  
 إغفالها التعليم وأخذها برأى المستشار البريطانى " دنلوب "

قد قام بينهم وبين العلم ضيق الحال سدا  
فاردد لنا عهد الإمام وكن بنا الرجل المفدى  
ثم يكشف السر فى هذا التخلف ويرده إلى رغبة الاحتلال فى تخلفنا  
ولكنه لا يلوم الاحتلال بل يلوم الحكومة الموالية للاحتلال :

أنا لا ألوم المستشار إذا تعلق أو تصدى  
فسبيله أن يستبد وشأننا أن نستعدا  
هى سنة المحتل فى كل العصور وما تعدى

ويستمر حافظ فى ترقب الأحداث الاجتماعية ليتخذها مادة يصل عن طريقها إلى إظهار العيوب التى تنهش جسم المجتمع المصرى فقد قامت فى مصر ضجة حول أغرب قصة زواج فى تاريخ مصر والتى أحدثت زلزالا هائلا فى كيان الشعب المصرى وأثارت زوبعة أثارها زواج الصحفى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد فى عام ١٩٠٤ من ابنة الشيخ عبد الخالق السادات شيخ السادة الوفائية. على غير رغبة الأخير بسبب مستوى الزوج الذى لا يؤهله لهذا الزواج. وحدث ان عقد العقد دون علم الأب. فرفع والد الزوجة الأمر إلى المحكمة الشرعية طالبا فسخ العقد لعدم الكفاءة فى النسب بين الزوجين فكيف يتزوج جورنا لجنى من بيت حسب ونسب ومع أن الشيخ على يوسف أثبت شرف نسبه، فان الأهواء السياسية لعبت فى قضية الزوجية دورا هاما شغل رأى العام والصحافة والشعراء فقد ساند الخديوى عباس الثانى على يوسف بينما وقف مصطفى كامل ضده فى ذلك الحادث وقد نظم حافظ قصيدة يعنى فيها على المصريين وجمودهم ، واستمساكهم بالتقاليد، وما هم عليه من فوضى فى رأى

بأسلوب يحمل منابع الحسرة فى نفسه بشكل خرج عن المألوف وينقد لاذع. فيتحدث عن هذه القضية ويبدأ قصيدته عاتبا على مصر ومنتقدا

لحياة المصريين الاجتماعية فيقول:

وحطمت اليراع فلا تعجبنى  
فما أنت يا مصر دار الأديب  
وكم فيك يا مصر من كاتب  
فلا تعدليني لهذا السكوت  
أعجبنى منك يوم الوفاق  
وكم غضب الناس من قبلنا  
أنابتة العصر إن الغريب  
يقولون : فى النشئ خير لنا  
أفى ( الأزبكية ) مثوى البنين  
(وكم ذا بمصر من المضحكات)  
أمر تمر وعيش يمر  
وشعب يفر من الصالحات  
وصحف تطن طنين الذباب  
وهذا يلوذ بقصر الأمير  
وهذا يلوذ بقصر السفير  
وهذا يصيح مع الصائحين  
وقالوا : دخيل عليه العفاء  
رأنا نياما ولما نفق

وعفت البيان فلا تعتبنى  
ولا أنت بالبلد الطيب  
أقال اليراع ولم يكتب  
فقد ضاق بى منك ما ضاق بى  
سكوت الجماد ولعب الصبى؟  
لسلب الحقوق ولم تغضب  
مجد بمصر فلا تلعبى  
وللنشئ شر من الأجنبى  
وبين المساجد مثوى الأب؟  
كما قال فيها ( أبو الطيب )  
ونحن من اللهو فى ملعب  
فرار السليم من الأجرى  
وأخرى تشن على الأقرب  
ويدعو إلى ظله الأرحب  
ويطنب فى ورده الأعذب  
على غير قصد ولا مأرب  
ونعم الدخيل على مذهبى  
فشمر للسعى والمكسب

وماذا عليه إذا فاتتنا  
ألفنا الخمول وياليتنا  
وقالوا: ( المؤيد ) فى غمرة  
دعاة الغرام بسن الكهول  
فضج لها العرش والحاملوه  
ونادى رجال بإسقاطه  
وعدوا عليه من السيئات وقالوا  
وقالوا لصيق بيت الرسول  
وزكى ( أبو خطوة ) قولهم  
فما للتهانى على داره  
وما للوفود على بابيه  
وما للخليفة أسدى إليه  
فيا أمة ضاق عن وصفها  
تضيع الحقيقة ما بيننا  
ويهضم فينا الإمام الحكيم  
على الشرق منى سلام الودود  
لقد كان خصبا بجذب الزمان

ونحن على العيش لم ندأب  
ألفنا الخمول ولم نكذب  
رماه بها الطمع الأشعبي  
فجن جنونا بينت النبى  
وضج لها القبر فى يثرب  
وقالوا : تلون فى المشرب  
ألوفنا تدور مع الأحقـب  
أغار على النسب الأنجب  
بحكم أحد من المضرب  
تساقط كالـمطر الصيب؟  
تـزف البشائر فى موكب  
وساما يليق بـصدر الأبي؟  
جنان المفوه والأخطب  
ويصلى البرئ مع المذنب  
ويكرم فينا الجهول الغبي  
وإن طأطأ الشرق للمغرب  
فأجذب فى الزمن المخصب

ويشير حافظ إلى الاتفاق الودى الذى تم بين انجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤  
والذى أباح لانجلترا إطلاق يدها فى مصر فيقول:  
أيعجبني منك يوم الوفاق  
سكوت الجماد ولعب الصبى؟

وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم نغضب

ويسخر حافظ ابراهيم من نفاق البعض وما يراه من فوضى الرأى  
فيقول صارخا:

(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيها "أبو الطيب"  
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب  
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجر

ثم يلتفت إلى الصحافة ويندد بموقفها من الشيخ على يوسف فيقول:  
وصحف تظن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب  
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب  
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب

فحافظ يسخر هنا من سوءات الشعب المتقلب، الذى اجتمع نفاقه ورضاه  
على شئ واحد، ثم يلتفت إلى الأدباء الذين يجذبون الناس إليهم بتلاعبهم  
بالألفاظ فيخطون الباطل بالحق، مما يؤثر على الحقيقة فيقول:

وأديب قوم تستحق يمينه قطع الأنامل أو لظى الإحراق  
يلهو ويلعب بالعقول بيانه فكأنه فى السحر رقية راقى  
فى كفه قلم يمىج لعابه سما وينفثه على الأوراق  
يرد الحقائق وهى بيض نصح قدسية علوية الإشراق  
فيردها سوداء على جنباتها من ظلمة التمويه ألف نطاق

عريت عن الحق المقدس نفسه فحياته ثقل على الأعناق  
لو كان ذا خلق لأسعد قومه ببيانه ويراعه السباق

وقد فند حافظ أفكار هؤلاء ووقف ضد محاولاتهم تقسيم الرأى العام  
والساسة وأهل الرأى موقف المخاصم، والمقاطع والمهاجم والمهادن.  
وقد تعرض حافظ بسبب هذه القصيدة للهجوم فاتهمه البعض بانه لم  
يتعمق درس المشكلات الاجتماعية عندما تحدث عن قضية الزوجية وذلك  
أنه لم يبين إهدار حرية الفتاة فى أن تتزوج بمن تحب، ولم يشير إلى  
التمسك التقليدى بالأنساب والاحساب. فوقف بذلك وقفة المتشكك من كل  
محاولة للإصلاح بعد أن تفجرت قضية الزوجية بشكل هز المجتمع  
المصرى هزا عنيفا وقاسيا.

ولما راودت فكرة التعليم الجامعى خلد المصريين وأجمع قادة الإصلاح  
بينهم على إنشاء جامعة وقرروا جمع التبرعات من أجل ذلك ناشد حافظ  
ابراهيم الأغنياء على التبرع بقوله:

إن كنتم تبذلون المال عن رهب فنحن ندعوكم للبذل عن رغب  
وهو يرى ان الجامعة دار العلم العميم الذى يؤدى إلى تنوير المجتمع  
وأنها كالشهاب بجانب تلك الكتاتيب والمدارس التى يشبهها بالمصابيح  
فقال:

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرماد بعين الحاذق الأرب  
فانشئوا ألف كُتَّابٍ وقد علموا أن المصابيح لا تغنى عن الشهب

وكان يرى أن الجامعة ضرورية للأمم حتى تجد حاجتها من  
المتخصصين الأكفاء الذين تعلموا فن العلوم الحديثة فقال:  
ومن يميّط ستار الجهل إن طمست معالم القصد بين الشك والريب  
فما لكم أيها الأقباط جامعة إلا بجامعة موصولة السبب

ويتعجب في آخر القصيدة من حال مصر ويتمنى أن يراه عزيز الجانب  
موفور الغنى متحررا من قيود الجهل والعادات البالية العتيقة فيقول:  
متى نراه وقد باتت خزائنه كنزا من العلم لا كنزا من الذهب  
هذا هو العمل المبرور فاكتبوا بالمال إنا اكتتبنا فيه بالأدب

وهو يشير في هذا الشعر إلى جهود الطبقة المفكرة في تشجيع المشروع  
والدعوة إلى نجاحه. وقد كانت جريدة اللواء توجه إلى التعليم العالي  
اهتماما خاصا حيث تبني مصطفى كامل هذه الفكرة ودعا إليها على  
صفحات هذه الجريدة منذ عام ١٩٠٤، وناشد المحبين لارتقاء البلاد على  
المساهمة فيها، كما عمل سعد زغلول وقاسم أمين من أجل إنجاح مشروع  
الجامعة، ومن أجل اللغة العربية واعتبارها لغة قومية. وساعد على هذا  
انتقاد الشيخ على يوسف للسياسة الانجليزية في التعليم في جريدة المؤيد.  
وكانت كل هذه الآراء تتصهر في بوتقة حافظ الشعرية لتخرج قصاد  
تطالب بإصلاح التعليم وإنشاء الجامعة المصرية الحديثة.

أما عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط فقد نالت من شعر حافظ  
الكثير حيث دعا إلى الوحدة الوطنية والتسامح بين الأديان قائلا:

هلاك الفرد منشؤه توان

وموت الشعب منشؤه انقسام

وبعد أن استفحل الداء واستشرى عندما ثارت الفتنة بين أبناء الأمة في سنة ١٩١١ لأسباب مصطنعة مفتعلة ، استغلها الإنجليز كوسيلة لتبرير احتلالهم لمصر بحجة المحافظة على الأمن، كما استخدموها لتمزيق وحدة الصفوف بالتفرقة والفتنة حيث داب السير "الدون جورست" المعتمد البريطاني في مصر على ضرب الوحدة القومية المصرية. ورأى بدهائه أن يستنزف قوتها بالتفرقة حتى تخبو جذوتها فسارت سياسته على وجهين: وفاق مع الخديوى عباس الثانى ومؤامرات للتفرقة بين أبناء الشعب الواحد. واتخذ لهذا الغرض من بعض الصحف الموالية للاحتلال سندا في إثارة النفوس إلى التناذب والخصام. كما استغل بعض ضعاف النفوس حادثة مقتل "بطرس غالى" رئيس النظار فى إشعال هذه الحركة. وعقد مؤتمر قبطى بأسيوط ومؤتمر إسلامى بالقاهرة ردا على المؤتمر القبطى. ولكن المصريين بما جبلوا عليه من التسامح الدينى استطاعوا أن يفوتوا على المحتل غرضه فى الوقيعة بين المصريين، وردوا كيده إلى نحره، مما أسدل على هذه الفتنة الستار دون أن تخلف أثرا فلم يخرج الأمر عن كونه خلافا عارضا قام بين أبناء مجتمع واحد وانتهى بتدخل عقلاء الأمة وقد وقف حافظ ابراهيم خلال ذلك مهتز الوجدان هائج الخاطر يشعر بالاشفاق على وطنه.

وينتهز حافظ عودة الخديوى عباس من دار الخلافة سنة ١٩١١ فيشير فى قصيدته التى هناه بها إلى خلاف المسلمين والأقباط داعيا إياهم إلى العمل على تلافيه حيث يقول:

دامى الفؤاد وليلة لا يعلم  
 راميه لا يحنو ولا يترحم  
 كم فيك ساعات تشيب وتهرم  
 أتعبتني وتعبت، هل من يحكم؟  
 بعظيم ما يخفى الفؤاد ويكتم  
 عنى، ومن هذا الذى يتظلم؟  
 هو ذلك المتوجه المتألم  
 لولا عيونك - حجة لا تقم  
 مما يجشمها الهوى لا تسلم  
 متحرما بفنائكم لا يحرم  
 تلك العيون وما جناه المعصم  
 يبقى عليه ولا الصبابة ترحم  
 متمللا من هول ما يتجشم  
 وجلا يؤخر رجله ويقدم  
 جزعا ويقدم بعد ذلك ويحجم  
 للقتل فوق فراشه يتقدم  
 وأنساب فيه بكل ركن أرقم  
 واد قد أطلعت عليه جهنم  
 من ناظريك، وما كتمتك أعظم  
 حتام تنجد فى الغرام وتتهم  
 (هاروت فى اثائها يتكلم)

كم تحت أذيال الظلام متيم  
 ما أنت فى دنياك أول عاشق  
 أهرمتى يا ليل فى شرخ الصبا  
 لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر  
 لله موقفنا وقد ناجيتها  
 قالت: من الشاكى؟ تسائل سربها  
 فأجبها وعجن كيف تجاهلت:  
 أنا من عرفت ومن جهلت ومن له  
 أسلمت نفسى للهوى وأظنها  
 وأتيت يحدو بى الرجاء ومن أتى  
 أشكو لذات الخال ما صنعت بنا  
 لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى  
 لو تنظرين إليه فى جوف الدجى  
 يمشى إلى كنف الفراش محاذرا  
 يرمى الفراش بناظريه وينتشى  
 فكأنه - واليأس ينشف نفسه -  
 رشقت به فى كل جنب مدية  
 فكأنه فى هوله وسعيه  
 هذا وحقك بعض ما كابدته  
 قالوا: أهذا أنت! ويحك فانتد  
 كم نفثه لك تستثير بها الهوى

إننا سمعنا عنك ما قد رأينا  
فأذهب بسحرك قد عرفتك واقتصد  
أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت  
حتى إذا يؤس الطبيب وجاءها  
واتت تعود مريضها لا بل أتت  
أقسمت ( بالعباس )، إنى صادق  
ملك عدوت على الزمان بحوله  
النجم من حراسه ، والدهر من  
هللت وحين رأيت ركبك سالما  
وحمدت ربي حين حل عرينه  
خفقت قلوب المسلمين واشفقت  
ودعا لك البيت الحرام فأمنت  
ودوى بمصر لك الدعاء فنيلها  
ومشى الصغير إلى الكبير مسائلا  
حتى اطمأنت بالشفاء نفوسهم  
مولاي أمتك الوديعه أصبحت  
نادى بها القبطى ملء لهاته  
وهم أغار على النهى وأضلها  
فهموا من الأديان مالا يرتضى  
ماذا دها قبطى مصر فصدّه  
وعلام يخشى المسلمين وكيدهم

وأطال فيك وفى هواك اللوم  
فيما تزين للحسان وتوهم  
فى هجرها وجنت على وأجرموا  
أنى تلفت تدمت وتقدموا  
منى تشيع راحلا لو تعلم  
فمريهم بجلاله أن يقسموا  
وغدوت فى آلائه انتغم  
خدامه ، وهو العزيز المنعم  
ورأيت ( عباسا ) به يتبسم  
متجدد العزمات ذاك الضيغم  
دار الخلافة والمليك الأعظم  
بطحاء مكة الحطيم وزمزم  
وسهولها وفصيحتها والأعجم  
يتسقط الأخبار أو يتنسم  
وطلعت بالسعد العميم عليهم  
وعرا المودة بينها تتفصم  
أن لا سلام وضاق فيها المسلم  
فجرى الغبى وأقصر المتعلم  
دين ولا يرضى به من يفهم  
عن ود مسلمها وماذا ينقم؟  
والمسلمون عن المكاييد نوم

وفى نهاية القصيدة يؤكد حافظ اشتراك المصريين جميعا فى ما

تتعرض له مصر من متاعب:

يشكو، فنحن على السواء وأنتم

قد ضمنا ألم الحياة وكننا

أن يخلصوا لكم إذا أخلصتم

إنى ضمين المسلمين جميعهم

لجميل رأيك والحوادث حوم

رب الأريكة، إننا فى حاجة

تأسو القلوب فإن رأيك أحكم

فأفض علينا من سمائك حكمة

تأتى على هذا الخلاف وتحسم

واجمع شتات العنصرين بعزمة

وكلاهما برضاك صب مغرم

فكلاهما لعزيز عرشك مخلص

والى جانب هذه المسائل الاجتماعية المتصلة بسياسة البلاد، التى أدت

إلى تخلف مصر عن ركب المدنية وكانت سببا فى أن يرمينا المتعصبون

من أهل الغرب بالتأخر والتخلف. ويتهمون الدين الإسلامى أنه بتعاليمه

سبب تخلف الشرقيين، وأن تعاليمه تحد من تقدمهم الحضارى، ومواكبة

المدنية والسير فى ركابها. نجد حافظ ابراهيم يقف فى وجه المتحاملين

على الإسلام، ويرد عليهم بالحجة والدليل القاطع موضحا ان سر تأخر

الشرق لا يعود إلى طبيعة الإسلام وإنما الذنب ذنب البعض الذين لم يفهموا

الإسلام على وجهه الصحيح ويستند فى ذلك إلى آراء الشيخ محمد عبده

ويصفه بأنه حامى الإسلام والدين:

أيترك فى الدنيا بغير حماة؟

تباركت هذا الدين دين محمد

ولانت قناة الدين للغمزات

تباركت هذا عالم الشرق قد قضى

وهكذا وجه حافظ كشاعر اجتماعى همه لمحاربة العيوب الاجتماعية من تقاليد واهية ، وعادات توارثها المصريون فاستقرت فى وعينا الاجتماعى، واستحال معظمها إلى بدع مضلة رسبت فى نفوس الشعب ورسخت. وكان حافظ يتهج فى محاربة هذه البدع من آراء الأستاذ الإمام فى الإصلاح الدينى والاجتماعى. فيهاجم هذه البدع التى كان لها أكبر الأثر فى تأخر الناس وتدهور أحوالهم فينتقد زيارة أضرحة الأولياء، ويبين أنهم لا ينفعون ولا يضررون، ويتهم من الساعين إليها، الذين يندرون النذور ويتوسلون إليها فى قضاء الحاجات:

وألف ألف ترزق الأموات	وأحيأونا لا يرزفون بدرهم
قامت على أحجارها الصلوات	من لى بحظ النائمين بحفرة
بحر النذور وتقرأ الآيات	يسعى الأنام لها ويجرى حولها
ووسيلة تقضى بها الحاجات	ويقال هذا القطب باب المصطفى

ويتعرض حافظ لأرباب الطرق فى الموالد ويكشف الستار عن الأساليب التى يتبعها هؤلاء فينسبون إلى الأولياء الكثير من الكذب والبهتان ويوقعون العامة بالأعيهم فيقول:

لوقبعة وقطيعة وفراق	كم عالم مد العلوم حبايلا
لمكيدة أو مستحل طلاق	وفقيه قوم ظل يرصد فقهه
كالبرج لكن فوق تل نفاق	يمشى وقد نصبت عليه عمامة
أن الذى يدعون خدن شقاق	يدعونه عند الشقاق وما دروا

وهكذا كان حافظ حربا على كل لون من ألوان الفساد الاجتماعى. فقد هاجم الرشوة والمرششين مبينا بأن ذلك يودى بالبلاد إلى فساد الحال، وانعدام الأمانة واستشراء المحسوبيات والاستثناءات التى تكون دائما على حساب الوطن ومصالح الفقراء ومما يزيد الأمر خطورة يذكر حافظ أن هؤلاء المرششين هم موظفو الدولة المتعلمون فيقول هل يصلح العلم عاريا من الأخلاق، كما يتعرض لذلك فى قصيدته بقوله:

والعلم إن لم تكتفه شمائل      تعليه كان مطية الإخفاق  
لا تحسبن العلم ينفع وحده      ما لم يتوج ربه بخلاق

ويهاجم حافظ الأطباء الذين لا يراعون فى عملهم مبادئ الإنسانية وقوانين مهنتهم الشريفة التى تتطلب النزاهة والرحمة والشفقة والرأفة بالمرضى من الفقراء والضعفاء:

وطبيب قوم قد أحل لطفه      ما لا تحل شريعة الخلاق  
قتل الأجنة فى البطون وتارة      جمع الدوانق من دم مهراق  
أعلى وأثمن من تجارب علمه      يوم الفخار تجارب الحلاق

ويهاجم حافظ التواكل والتساهل بين الناس ويستمر مصورا رغبته فى إصلاح المجتمع الذى شاعت فيه روح التخاذل ويقسمهم فريقين فريقا يطير مع الخيال ويحلم بتحقيق الآمال، وفريقا يرتجل النوادر ويرسل النكات على وفق مقتضى الحال:

هذا يطير مع الخيال      وذاك يرتجل النوادر

بمصر إلا قول باكر

ما هد عزم القادرين

وقد أولى حافظ هذا الداء الاجتماعى عنايته فبين أسبابه وأعراضه  
موضحا أنه داء عضال ينهش الشعب ويهد من كيانه:  
سرى داء التواكل فيه حتى تخطف رزقه ذاك الزحام  
قد استعصى على الحكماء منا كما استعصى على الطب الجذام

ويشير حافظ إلى أثر التواكل والتخاذل فى مستوى الحياة وإلى تخلف  
الأمة المصرية وعدم وصولها إلى المكان اللائق بها فيقول:  
ان فينا لولا التخاذل أبطا لا إذا ما هم استقلوا اليراعا  
وعقولا لولا الخمول تولا ها لفاضت غرابة وابتداعا  
ودعاة للخير لو انصفوهم ملئوا الشرق عزة وامتناعا  
كاشف الكهرباء ليتك تعنى باختراع يروض منا الطباعا  
آلة تستحق التواكل فى الشر ق وتلقى عن الرياء القناعا

وهو إذ يندد بتخاذل المصريين وقعودهم عن استغلال موارد بلادهم  
ينعى عليهم تسليم أمورهم إلى الأجانب فيقول:  
أمة قد فت فى ساعدها بعضها الأهل وحب الغربا

وقوله فى قصيدة أخرى:  
وما الموت الزوام إذا عقلنا  
لقد سعدت بغفلتنا فراحت  
سوى الشركات حل لها الحرام  
بثروتنا وأولها ( التبرام )

فيا ويل الفناة إذا احتواها

بنو ( التاميز ) وانحسر اللثام

وحافظ في نقده طائفة الأغنياء الذين انتهت إليهم الثروات، يوضح أن كل همهم هو الحصول على الألقاب فيقول:  
وهل في مصر مفخرة  
سوى الألقاب والرتب

ويحس حافظ بمرارة لهذه العيوب الاجتماعية التي التصقت بالمصريين ولم يحاولوا التخلص منها ولذلك نجده يطالب إيقاظهم من غفلتهم فيقول:  
فهبوا من مراقدكم  
فإن الوقت من ذهب

ويظل حافظ يرشد أبناء وطنه إلى الطريق الصحيح فيقول:

قم يا ابن (مصر) فأنت حر واستعد  
مجد الجدود ولا تعد لمراح  
شمر وكافح في الحياة فهذه  
دنياك دار تنأحر وكفاح  
وخض الحياة وإن تلاطم موجها  
خوض البحار رياضة السباح  
واجعل عينيك قبل خطوك رائدا  
لا تحسبن الغمر كالصخضاح

ويطالبهم بالنظر إلى الغرب وبترسومون خطاه فيقول:

وانظر إلى الغربى كيف سمت به  
بين الشعوب طبيعة الكداح  
وأنه ما بلغت بنو الغرب المنى  
إلا بنيات هناك صحاح  
ركبوا البحار وقد تجمد ماؤها  
والجو بين تناوح الأرواح  
والبر مصهور الحصى متأججا  
يرمى بنزاع الشوى لواح  
يلقى فتسيهم الزمان بهمة  
عجب ووجه في الخطوب وقاح

ويشق أجواز القفار مغامرا وعز الطريق لديه كالصحاح  
لقد خالط حافظ جميع طبقات الأمة رغم ما بينها من تفاوت في الرزق  
والثقافة والطباع . وترسبت في نفسه يتمه الباكر رواسب الماضي وما  
يتمتع به الأغنياء وأصحاب المكانة الممتازة من الأسر الكبيرة المعروفة.  
فينظر بعين التأمل إلى هذا التفاوت الطبقي، فالأغنياء الموسرون ينفقون  
ويتمتعون، ولا يكادون يحسون بؤس البائسين ولا شكوى المحرومين، فما  
هم فيه من غنى وثراء شغلهم عن إخوانهم الفقراء.

وبين هاتين الطبقتين المتفاوتتين طبقة وسطى كافحت من أجل حياة  
أفضل وحاولت الوصول إلى منتصف الطريق.

وهذا التفاوت بين هذه الطبقات جعل التعاون بينها يكاد يكون نادرا.  
فالزكاة التي جعلها الله في مال الغنى حقا معلوما للسائل والمحروم بخل بها  
الأغنياء وضمنوا بها على الفقراء.

وبرزت مأساة هذا التناقض بين طبقات الأمة في نفس حافظ الشاعرة  
التي ذاقته من البؤس ألوانا خلال طفولته فكان يشفق على الطبقة الفقيرة  
ويهاجم غلاء الأسعار في صراحة وقوة فيقول:

أيها المصلحون ضاق بنا العيش ولم تحسنوا عليه القياما

عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما

وغدا القوت في يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما

هو لا يتوقف عند هذا الهجوم بل يعاوده من خلال القصيدة بصورة  
تثير النفوس وتبعث على السخط، مبينا أثر الحاجة وما تدفع إليه من  
ارتكاب الأثام:

أيها المصلحون أصلحتم الأرز  
 ض وبتّم عن النفوس نياما  
 أصلحوا أنفسا أضرب بها الفقر  
 وأحيأ بموتها الأثاما  
 وأغيثوا من الغلاء نفوسا  
 قد تمنّت مع الغلاء الحماما  
 أوشتك تأكل الهبيد من الفقر  
 وكادت تزدود عنه النعاما  
 وهو مع ثورته يبين سخريته المرة من المسئولين فيخطبهم قائلا:  
 قد شقينا ونحن كرمنا  
 الله بعصر يكرم الانعاما

ولما كان سوء الأحوال الاقتصادية يؤثر في الفقراء بصورة تزيد حالتهم سوءا فقد طالب أصحاب القلوب الرحيمة بمد يد العون لتعين هؤلاء وتمسح عنهم البأساء وقدم شكره إلى جماعة رعاية الأطفال لما تقوم به من خدمات فأشاد بأعمال هذه الجماعة وأفضالها على الطفولة البريئة البائسة، والأمومة التعيسة.

ونراه يمجّد هذه الإنسانية العالية التي تدفع جماعة رعاية الأطفال إلى التبرع بخدماتها لمن هو في حاجة إليها دون كلل ولا استعلاء.

وقد أنشد حافظ في هذا الحفل القصيدة التالية:

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا ، بل فتاة بالعرء حياىلى  
 أمست بمدرجة الخطوب فما لها راع هناك وما لها من والى  
 حسرى، تكاد تعد فحمة ليلها نارا بأنات نكين طـووال  
 ما خطبها، عجبا، ولما خطبى بها؟ مالى أشاطرها الوجيعة مالى؟  
 دانيتها ولصوتها فى مسمى وقع النبال عطفن إثر نبال  
 وسألتها: من أنت؟ وهى كأنها رسم على طلال من الأطلال

لم تدر طعم الغمض منذ ليالي  
ومضى الحمام بعمها والخال  
وجرى البكاء بدمعها الهطال  
يحنو على أمثالها أمثالى  
فى هيكل يرنو إلى تمثال  
بزوالهن فوادح الا تقال  
هيفاء روعها الأسى بهزال  
شمس النهار فأصبحت كاللال  
من قبره وبسير شن بالى  
حملت حين حملت عود خلال  
بالليل (دار رعاية الأطفال)  
باب الحياة ومؤذن بزوال  
لهما من الإشفاق والإعـوال  
أحدا ولا مترقبا لسـؤال  
أو طرق رب الدار غير مبالى  
دقات مرضى مدلجين عجال  
صنع الجميل تطوعت فى الحال  
بعضا لوجه الله لا للمال  
كالأم تكلاً طفلها وتوالى  
فوق الوسائد فى مكان عالى  
بسرير ضيفتهم كبعـض الال

فتململت جزعا وقالت: حامل  
قد مات والدها، وماتت أمها  
وإلى هنا حبس الحياء لسانها  
فعلمت ما تخفى الفتاة وإنما  
ووقفت أنظرها كأنى عابد  
ورأيت آيات الجمال تكفلت  
لا شئ أفعـل فى النفوس كقامة  
أو عادة كانت تريك إذا بدت  
قلت: انهضى، قالت: أينهض ميت  
فحملت هيكـل عظمها وكأننى  
وظفقت أنتب الخطا متيمما  
أمشى وأحمل بائسين : فطارق  
أبكيهما وكأنما أنا ثالث  
وطرقت باب الدار لامتهيبا  
طرق المسافر أب من أسفاره  
وإذا بأصوات تصيح : الا افتحوا  
وإذا بأيد طاهرات عـودت  
جاءت تسابق فى المبرة بعضها  
فتناولت بالرفق ما أنا حامل  
وإذا الطيب مشمر وإذا بها  
جاءوا بأنواع الدواء وطوفوا

ويروود ممكن دائها القتال  
دقات قلب أم ديبب نمال  
وخرجت منشرحا رضى الببال  
للباقيات وصالح الأعمال  
تلك المروءة والشعور العالى  
تنبو بحاملها عن الإذلال  
ماء الوجوه فذاك خير نوال  
- وهو الجواد - يعد فى البخال  
جم الوجيعة سىئ الأحوال  
عرى ، إلى سقم ، إلى إقلال  
نفس مروءة وجيب خالى  
أم كاسيا فى تلك الأسمال  
خلف الخروق يطل من غربال  
يا حر ، تلك فريسة المغتال  
يا نفس رقى يا مروءة والى  
وخلا المجال لخاطف الأجال  
نفس الفقير ثقيلة الأحمال  
سهروا من الأوجاع والأوجال  
مدنية الأديان والأجبال  
وربيع أهل اليؤس والإمحال  
لا تجهلون عواقب الإهمال

وجئا الطبيب يجس نبضا خافتا  
لم يدرحين دنا ليلو قلبها  
ودعتها وتركتها فى أهلها  
وعجزت عن شكر الذين تجردوا  
لم يخجلوها بالسؤال عن أسما  
خير الصنائع فى الأنام صنيعة  
وإذا النوال أتى ولم يهرق له  
من جاد من بعد السؤال فإنه  
لله درهم فكم من بئاتس  
ترمى به الدنيا ، فمن جوع ، إلى  
عين مسهدة وقلب واجف  
لم يدر ناظره أعريانا يبرى  
فكان ناحل جسمه فى ثوبه  
يا برد ، فاحمل ، قد ظفرت بأعزل  
يا عين سحى ، يا قبول تقطرى  
لولاهم لقضى عليه شقاؤه  
لولاهم كان الردى وقفا على  
لله در الساهرين على الآلى  
القائمين بخير ما جاءت به  
أهل اليتيم وكهفه وحماته  
لا تهملوا فى الصالحات فإنكم

إني أرى فقراءكم فى حاجة - لو تعلمون - لقائل فعال  
 فتسابقوا الخيرات فهى أمامكم ميدان سبق للجواد النبال  
 والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشرة الأمثال  
 وجزاء رب المحسنين يجل عن عد وعن وزن وعن مكيال

ولما أقامت جماعة رعاية الأطفال حفلها بدار الأوبرا، ألقى حافظ  
 قصيدة دعا فيها إلى الإحسان والقصيدة التى ساقها تدور حول محسن ينجيه  
 إحسانه من الموت تحت القطار ومن الغرق مبينا إذا قام الأغنياء باخراج  
 الزكاة يقل عدد المحرومين والبؤساء:

أنجاة من القطار، من الجسر، من النهر جل رب الأنام  
 وإذا صيحة علت من فتاة برزت من صفوف ذاك الزحام  
 وقفت موقف الخطيب ونادت تلك عقبى رعاية الأيتام  
 إن هذا الكريم قدصان عرضى وحمانى من عاديات السقام  
 عال طفلى وعالى وحبانى بكساء وبدره وطعام

كما بين أن هذا الرجل الذى أنجاه الله من الموت هو عضو هذه  
 الجماعة التى تساعد كل ملهوف بائس فقال:

وهو من معشر أغاثوا ذوى البؤس وقاموا فى الله خير القيام

ولما كان حافظ يرى ان عليه واجبا نحو البؤساء، فلا بد أن يعلن  
 صرختهم فى المجتمع وأن يهز المتغافلين عن مساعدتهم، وأن يساند  
 الجمعيات التى تقوم على رعايتهم سواء كانوا أطفالا أم أمهات، صغارا أم

كبارا، ويحس في قرارة نفسه أن الخير الذى يجلبه لهؤلاء ، هو قيس الأمل  
ونور الرجاء. ولا ينسى أيامه الأولى التى ذاق فيها آلام اليتيم فقال:  
لم أقف موقفى لأنشد شعرا                      صب فى قالب بديع النظام  
إنما قمت فيه والنفس نشوى                      من كنوس الهموم والقلب دامى  
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشا                      دون شربى قذاه شرب الحمام  
فتقلبت فى الشقاء زمانا                      وتقلت فى الخطوب الجسام  
ومشى الهم ثاقبا فى فؤادى                      ومشى الحزن ناخرا فى عظامى  
فلهذا وقفت استعطف النا                      س على البائسين فى كل عام

لقد أحس حافظ مأساة الطفولة المشردة إحساسا عنيفا. وكانت كل  
قصيدة يقولها تصف العلل وتبرز المأساة وتستدر أنبل ما فى الأغنياء من  
عواطف الإشفاق والرحمة.

وها هو يرى الجمعية الخيرية الإسلامية تمد يد العون إلى الأيتام الذين  
تقوم على تربيتهم وتنشئتهم تنشئة صالحة ، فيهزه صنيع الجمعية، ويرى  
ان عليه أن يشيد بها وبمعروفها، فيلقى قصيدة بين يدي السلطان حسين  
كامل حاكم مصر فى حفل أقامته الجمعية بدار الأوبرا السلطانية. وفى هذه  
القصيدة يتحدث على لسان أحد صنائع الجمعية الذى كان يتيما بائسا فكفلته  
الجمعية حتى اكتمل عقلا وعلما. ويكاد القارئ يستشف يتم حافظ. فالآلام  
طفولته تطل من الأبيات التى تحدث بها اليتيم عن نفسه.

لم يبق من اهلى سوى                      ذكر تناساه الصحاب  
أمشى يرنحنى الأسى                      والبؤس ترنيح الشراب

فلكم ظللت على طوى  
والجوع فراس لـه  
يومي وبت على تباب  
ظفر يصول به وناب  
فكانه فى مهجتي  
نصل تغلغل للنصاب

وهذا اليتيم قيض الله له الجمعية الخيرية التى فتحت له فى ظلام حياته  
بابا من أمل ونور، إذا علمته بمدارسها ورعته ببرها الذى شمله دون أن  
يحس من أحد منا ولا اذى

وجمال صنع البرأ  
لا يستشف له حجاب  
والشعور الذى يعطف حافظا نحو الطفولة والدعوة للبر بها، كان دائما  
يتأجج فى نفسه فهو يمضى فى الحياة محروما من الاستقرار العائلى ومن  
حنان الأم وعطف الزوجة وتعلق الأبناء. فكان يحس فى أقصى ضميره  
بما يشعر به هؤلاء، ولذلك استمر يدعو للبر بهم . والإحسان إليهم،  
بمساعدة الجمعيات القائمة على رعاية الطفولة:

قد أجبنا نداء كن وجئنا  
لو ملكنا غير المقال لجدنا  
نسأل القادرين بعض النوال  
إن جهد المقل حسن المقال  
ونراه يشيد فى قصيدته التى أنشدها لأول مايو سنة ١٩٢٨ بجمعية

أعضاؤها من السيدات ذوات القلوب الرقيقة:

أى ذورات الحجال عشتن للبر  
لم يكونوا ليدركوا المجد لولا  
ودمتن قدوة للرجال  
قمن علمننا المروءة والعطف  
قمن عملننا الحنان على الطفل  
قمن عملننا المروءة والعطف  
قمن عملننا الحنان على الطفل

ويتوجه إلى الحاضرين يطالبهم بالتبرع وتأييد دعوة الإحسان لا إلى هذه الجمعية وحدها ولكن إلى كل مشروع يحمل في طياته برا بالمساكين: أيدوا كل مجمع قام للبر بجاه يظلمه أو بمسال وهنا يشمل حافظ بشكره رجال الإسعاف وما يؤدون من خدمات لتخفيف ويلات الإنسانية:

رجال الإسعاف أنبل لولا	شهوة الحرب من رجال القتال
يسهرون الدجى لتخفيف ويل	او بلاء مصوب أو نكال
كم جريح لولا هم مات نزفا	فى يد الجهل أو فى يد الإهمال
كم صريع من صدمة أو صريع	من سموم مخدر الأوصال
كم حريق قد أحجم الناس فيه	عن ضحايا تثن تحت التلال
يترامون فى اللهب سراعا	كترامى القطا لورد الزلال
لا لشيء سوى المروءة تحلو	طعمها فى فم المرئ الموالى

وقصيدته هذه توضح أوسع دعوة البر عند المصريين وتقدم الوعى الاجتماعى لديهم ، مما ساعد على تخفيف دموع المنكوبين ، والمسح بيد الرحمة على آلام البائسين .

وحافظ لا يتوقف عن الدعوة لمساندة محافل البر فى قصائده فهو يرى فى نفسه حامى الطفولة والهاتف بدعوتها . ويفخر بأنه الشاعر الاجتماعى الذى يقف مع هؤلاء فى مايو سنة ١٩١٩ يدعو إلى معاونة ملجأ الحرية الذى يأوى الأيتام وينشئهم تنشئة صالحة . ويقول فى قصيدته إن أغنياء مصر قد اتسعت فى نفوسهم عاطفة البر وأنهم اليوم غيرهم بالأمس .

لا تسئ ظنا بمنثرينا فقد تاب عن آثامه واستغفرا

كان بالأمس وأقصى همه  
فغدا اليوم يواسى شعبه  
إن أتى عارفه أن يظهرها  
وهو لا يرغب فى أن يشكرا  
محنة عمت ومقدار جرى  
نبهت عاطفة البر به

ويرى أن هذا التراحم بين الطبقات لم يعد مظهرا من مظاهر الإيمان بالدين والعمل بمقتضاه، بل يراه إيمانا بمصر وحقها عليهم فى أن يتعاهد أبناءها على دفع الأذى، وإن يتواصوا فيما بينهم بالبر حتى يصير شعب مصر شعبا صالحا متآزرا، أبناءه أعضاء جسد واحد إن شكا منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وما أروع حافظا الذى بر بالطفولة والدعوة لعونها واستنقاذها من برائن الجهل والفقر والمرض، إذ رأى بعينه أن هناك طائفة أخرى من بنى وطنه تستحق أن يدعو لها ويعلن عن بؤسها وحاجتها إلى العناية والرعاية والإصلاح، وهى طائفة المكفوفين الذين سلبتهم الأقدار نعمة الإبصار، فإذا كانت جمعيات الطفل قد نالت قسطا وافرا من شعره وعطفه فإن جمعية إعانة المكفوفين هى الأخرى كانت ضمن اشعار حافظ فى حفلها الذى أقيم بالأوبرا فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ فألقى قصيدة استجدى بها أكف المحسنين لبناء مدرسة لهؤلاء المكفوفين الأحداث مؤكدا حقهم على إخوانهم الذين يملكون المال ونعمة البصر:

إن حق الضرير عند نوى الإِب — صار حق مستوجب التقديس  
لم يضره فقدانُه نور عينيهِ — إذا اعتاض عنهما بأنيس  
أنسوا نفسه إذا أظلم العي — ش يعلم فالعلم أنس النفوس

وحافظ فى معرض استنهاض الهمم لوح للمتبرعين بالفائدة التى قد  
يجنيها المجتمع من صنيعهم فرىما أنجبت مدرسة العميان عبقرىا يكون فى  
مجتمعه أديبا مثل طه حسين عميد الأدب العربى أو غيره فيقول:

أكملوا نقصه يكن عبقرىا      مثل " طه " مبرزا فى الطروس  
كم رأينا من أكمه لا يجارى      وضرير يرجى ليوم عبوس

وبهذا يؤكد حافظ الحق المعلوم فى مال كل غنى لأخيه فى الوطن الذى  
نكبتة الحوادث وجار عليه الزمن. بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فهو يؤكد  
معنى التكافل الاجتماعى بين أبناء الوطن مما يعد أحدث ما تتجه إليه  
التشريعات الاجتماعية فى العصر الحديث.

وحافظ ابراهيم الذى اتسعت نفسه لآلام أمته، ورفت عاطفته الكبيرة  
لآلام الناس التى نكبتها الحياة بدأت نفسه تتسع ، وعاطفته الإنسانية العالية  
تمتد لتتأثر بمصائب الإنسانية كلها. فهو يقول بلغته العربية شعرا يصور  
به آلام البشرية خارج الديار المصرية تصويرا رائعا فيه كل معانى التآلم  
لآلام الآخرين والرثاء لهم واستدرا العطف عليهم فى عام ١٩٠٢ وقع  
بركان فى منطقة المارتنيك إحدى جزر الهند الغربية الفرنسية، فأشار  
حافظ إلى كثرة ضحاياه معبرا عن إحساسه بالألم للفجعة التى تعرض لها  
البشر هناك

وفى عام ١٩٠٨ كان زلزال "مسينا" قد أصاب الإيطاليين بكثير من  
عنت الأقدار والخراب والدمار فتهز هذه الحوادث حافظ هذا عنيفا وتحرك  
فى قلبه مشاعر الإنسانية وعواطف الرحمة والمواساة. فيبدأ فى وصف  
الزلزال بالحديث عن غضب الطبيعة على الإنسان، وغضب البر والبحر

على البشر، ويصف مظاهر ثورة الطبيعة وخسفها بلدة مسينا وإغراقها.  
وزرعها للموت فى كل مكان ثم ينتقل إلى ناحية من الوصف تمس  
العواطف الإنسانية مسانعة. وتهز المشاعر هذا لا تعرف معه طعاما  
للقرار والهدوء فيقول:

رب طفل قد ساخ فى باطن الأرض  
ر تَعانى من حرة ما تعانى  
مستميتا تمتد منه اليــــدان  
مسرع الخطو مستطير الجنان  
من لظاها ولا اللظى عنه وإنى  
وهكذا وصف حافظ ثورة الطبيعة وصفا مشخضا يبعث فى نفس القارئ

من الصور والأخيلة ما يثير انفعالات الخوف والجزع والأشفاق:

بغت الأرض والجبال عليها  
تلك تغلى حقدًا عليها فتتشق  
فتجيب الجبال رجما وقذفا  
وتسوق البحار ردا عليها  
فهنا الموت أسمر اللون جون  
وطغى البحر أيما طغيان  
انشقاقا من كثرة الغليان  
بشواظ من مارج ودخان  
جيش موج نائى الجناحين دانى  
وهنا الموت أحمر اللون قانى

كما يعبر حافظ عن الجانب التصويرى للحادث فيقول:

ألبسوك الدماء فوق الدماء  
فلبست النجميع من عهد قابيب  
فلك العذر إن قسوت وإن خند  
غاط الناس، ما طغى جبل النا  
وأروك العداء بعد العداء  
ل وشاهدت مصرع الأبرياء  
ت وإن كنت مصدرا للشقاء  
ر بإرسال نفثه فى الهواء



لخرجوا صدر أمة فأراهم  
 اسخطوها فصابرتهم زمانا  
 أيها الناس إن يكن ذاك سخط الـ  
 إن فى علو مسرحا للمقادير  
 فأتقوا الأرض والسماء سواء  
 أما عن موقف حافظ من المرأة، فقد أدرك خطرها فى الحياة المصرية،  
 خاصة بعد أن أشرق نور العلم عليها وفتح أمامها آفاقا من التطلع إلى  
 الرقى والتقدم، كلما حظيت بنصيب من الثقافة، وكلما تفتحت أمامها أبواب  
 الاتصال بالحياة.

وعندما دعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة وألف لتوضيح دعوته كتابين  
 هما "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" وكان لدعوته صدى مقاومة عنيفة  
 من الذين تذرعوا بحجة الدين فى مهاجمته. وقف حافظ إلى جوار قاسم  
 أمين يسانده بشعره ويشد من أزره فنشر قصيدة عنوانها "إلى محرر المرأة"  
 يقول فيها:

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم	ولم يفقوا فى السفر ما أنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم	فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه
فلو أن شخصا قام يدعو رجالهم	لوضع نقاب لاستقامت رغائبه
ولو خطرت فى مصر حواء أمنا	يلوح محياها لنا ونراقبه
وفى يدها العذراء يسفر وجهها	تصافح منا من ترى وبخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد	وجيش من الأملاك ماجت كواكبه
وقالوا لنا رفع النقاب محلل	لقلنا نعم حق ، ولكن نجانبه

ففى هذه الأبيات تبدو سخرية حافظ من المعارضين لتحرير المرأة فهو يعلل صدهم عن دعوة قاسم بأنهم لا يفهمون الصواب، ولا يسلكون سبيل الحق، ولا يتبعونه ويغلو حافظ فى سخريته منهم مبينا انهم لا يؤمنون بدعوة الحق التى يدعو إليها قاسم أمين. غير أن حافظ يبدو عليه الخوف والتردد فى مناصرة قضيتها، فنراه فى قصيدته التى قالها فى مدرسة البنات ببورسعيد فى ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ يقف موقفا وسطا بين المغالين فى المطالبة بحرية المرأة ، وبين الذين يتزمتون ويرون الحَجَرَ على حريتها وإهمال وجودها وكأنها متاع يفتنى . فيقول:

من لى بتربية النساء فإنها	فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا اعدتھا	أعدت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعده الحيا	بالرى أورق أيما إیراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى	شغلت مأثرهم مدى الآفاق

ولكنه يحسب حسابا للرأى العام وموقفه من المرأة، ويحرص على أن يسترضيه ليبقى على إعجابه به باعتباره الشاعر الاجتماعى فيرتد عن الصراحة وعن مجابهة الرأى العام التى عرفناها منه عند بدء دعوة قاسم أمين، ويقول:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا	بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع	يحذرن رقبتة ولا من واقسى
يفعلن أفعال الرجال لوأهيا	عن واجبات نواعس الأحداق
فى دورهن شئونهن كثيرة	كشئون رب السيف والمزراق

وهكذا يمسك العصا من وسطها لا يؤيد التحرر السافر ولا التقييد الذى  
عفا عليه الزمن فيقول:

كلا ولا أدعوكم ان تسرفوا      فى الحجب والتضييق والإرهاق  
ليست نساؤكم حليًا وجواهرًا      خوف الضياع تصان فى الأحقاق  
ليست نساؤكم أثاثًا يقتنى      فى الدور بين مخادع وطباق  
تتشكل الأزمان فى أدوارها      دولا وهن على الجمود بواقى  
فحافظ يدعو إلى حال وسط بين الطرفين الممتازين حتى يرضى  
أنصار التجديد والمحافظين على التقاليد معا فيقول:

فتوسطوا فى الحاليتين وانصفوا      فالشر فى التقييد والإطلاق  
ربوا البنات على الفضيلة إنها      فى الموقفين لهن خير وثاق  
وعليكم أن تتبين بناتكم      نور الهدى وعلى الحياء الباقي

ولا يتعرض حافظ لحقوق المرأة المصرية فى المجتمع، ولا يدافع عن  
قضيتها بعد وفاة قاسم أمين ، وإنما يكتفى بتسجيل نشاطها الاجتماعى  
ومساهمتها فى جمعيات الطفولة وملاجئ الأيتام، أو مساهمتها فى الحركة  
الوطنية سنة ١٩١٩ كمظاهرة السيدات المصريات وغيرها .

ويستمر حافظ فى قصائده يتتبع أخبار وطنه وأوضاعه السياسية  
والاجتماعية وعندما فجعت مصر بوفاة زعيم الأمة سعد زغلول قام حافظ  
بكتابة قصيدة رثاء أنشدها فى الحفل الذى أقيم لتأبين الفقيد فى ١٧ أكتوبر  
سنة ١٩٢٧م فيقول:

إيه يا ليل هل شهدت المصابا      كيف ينصب فى النفوس انصابا؟

بلغ المشرقين قبل انبلاح الصبح  
وانع للنيرات (سعدا) فد (سعد)  
قديا ليل من سوادك ثوبا  
انسج الحالكات منك نقابا  
قل لها: غاب كوكب الأرض في الأر  
والبسني عليه ثوب حـداد  
أين (سعد) ؟ فذاك أول حفـل  
لم يعود جنوده يوم خطـب  
عل أمرا قد عاقه، عل سقما  
أى جنود الرئيس نادوا جهارا  
إنها النكبة التي كنت أخشى  
إنها اللفظة التي تتسوق الأنـ  
مات (سعد)، لا كنت يا (مات سعد)  
كيف أقصدت كل حى على الأر  
حسرة عند أنه عن أه  
قل لمن بات فى (فلسطين) بيكى  
هذا عن قصائد حافظ وأفكاره عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية،  
ويتبقى الحديث عن حافظ كشاعر رائع النكتة يمتلك الفكاهة الحلوة والنوادر  
المستلمحة ، وهو ما سنتعرض له فى الفصل التالى.